

عن الجواهر¹

بسم الله الرحمن الرحيم، و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما.

الحمد لله الذي أفاض على أرض قلوب أوليائه نيل العرفان، فنبت فيها ربيع المعرفة المتنوعة أزهاره العجيبة على الألوان، ثم هبت عليها رياح الفتح من حضرة القدس، فتمايلت طربا به في رياض الأنس، فانحاش إلى استنشاق نفحات عرفهم المستطاب، كل ذي نفس ملحوظة بالعناية في سلوك سبل الصواب، فما خاب مسعى من أم جنابهم الرفيع العالي، في نيل مقصوده الرفيع العالي، حين شملته العطفة المحمدية، بالسعادة الأبدية، فضلا من الله عليه ومنة عظيمة، أسداها إليه بواسطة هذا النبي الكريم صاحب الخلق العظيم.

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعدا و تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه المختار و المرسل
واسطة فيها واصل لها	يعلم هذا كل من يعقل ²

صلى الله عليه و على آله و أصحابه، و كل من تعلق بأذياله في سلوك محجته السحاء من أهل حزبه، و رضي الله عن سيدنا و سندا العارف الرباني، القطب الصمداني، الختم الأكبر، العلم الأشهر، شيخنا الكوكب النوراني، سيدنا و مولانا أحمد التجاني، و على كل ذي قلب سليم، سالك في سبل الرشيد على الصراط المستقيم، و بعد فيقول العبد الفقير إلى مولاه، الراجي مغفرته و رحماه، أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، غفر الله له و لوالديه، و أحسن لهما و إليه، مع سائر المسلمين آمين: إنه لما كانت الطريقة التجانية ذات المواهب العرفانية طريقة أسست على تقوى من الله ينال العبد بانخراطه في سلوكها رضى مولاه، لأنها طريقة محمدية محوطة بالسعادة الأبدية، و كم لها من مزايا جسيمة و مناقب فخيمة.

¹ - حاول المؤلف من خلال هذا الكتاب أن يلمَّ جميع ما جاء في كتاب الجامع للعلامة ابن المشري، من تقاييد ومقالات وأجوبة لم تذكر في كتاب جواهر المعاني للعارف بربه سيدي الحاج علي حرازم، اعتبارا لكون هذا الكتاب الأخير كان قد ألفَ إبان حلول الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه بمدينة فاس سنة 1213هـ - 1798م، وتوفي صاحبه بعد ذلك بمدة لا تزيد على خمس سنوات، بينما تأخرت حياة مؤلف الكتاب الأول (الجامع) إلى حدود سنة 1224 هـ - 1809م، الشيء الذي سمح له بإضافة مجموعة من الأجوبة والتقايد غير الموجودة في كتاب الجواهر.

وتقيد بعض الوثائق أن العلامة سكيرج كان قد شرع في إنجاز هذا الكتاب عام 1328 هـ - 1910م لكنه لم يتمه، وانشغل عنه بإتمام مؤلفاته الأخرى.

² - الأبيات الأربعة الأولى من قصيدة للقطب الشهير سيدي محمد البكري.

و قد أُلّف في هذه الطريقة المحمدية جماعة من أصحاب سيدنا رضي الله عنه، و جمعوا بعض ما تلقوه منه، و أفضل ما أُلّف فيها كتاب جواهر المعاني، للخليفة المكرم سيدنا الحاج علي حرازم برادة رضي الله عنه، و كتاب الجامع لما افترق من درر العلوم، الفائضة من بحار القطب المكتوم، للفقير العلامة الجليل، الشريف الأصيل، سيدي محمد بن المشري رضي الله عنه، إلا أن كتاب الجامع انفرد بزيادات عن كتاب الجواهر، مع اشتماله على ما في كتاب الجواهر، و قد سألتني من تجب مساعفته، و تتعذر مخالفته، بأن أجرد تلك الزيادات في مجموع لطيف، و أسلوب شريف، إتحافاً له و للسادة الإخوان، و لمن سلك نهجهم في طلب العرفان، فأجبتهم كما إليه دعائي، راجياً من المولى بلوغ الأمان، و سمّيته بالسر الباهر، فيما انفرد به الجامع عن الجواهر، و رتبته على ترتيب تراجم جواهر المعاني، ليكون سهل التناول على من أراد الاطلاع على ما في قصور فنونه المحكمة المباني، و ربما زدت في بعض المسائل ما يستحسنه كل عاقل، مُنبِّهاً على ذلك عند سلوك تلك المسائل، و من الله أسند الإعانة و التوفيق، و الهداية لأقوم طريق.

¹ - البيت للشاعر أبي الطيب المتنبّي، قاله في آخر أربعة أبيات له ونصها:

أُتيت بمنطق العرب الأصيل	وكان بقدر ما عاينت قبلي
فعارضه كلام كان منه	بمنزلة النساء من البعول
وهذا الدر مأمون التشظي	وأنت السيف مأمون الفلول
وليس يصح في الأفهام شيء	إذا احتاج النهار إلى دليل

**الباب الأول في التعريف
بنسبه و نشأته و بدايته و مجاهدته و أخذ طريقته
وفيه ثلاثة فصول**

الفصل الأول في التعريف بنسبه

اعلم أن شيخنا قطب الأقطاب علم الطريقة، و بحر الشريعة و الحقيقة، أبا العباس التجاني رضي الله عنه، هو أحمد بن مولانا محمد المكنى بابن عمر بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم بن أبي العيد بن سالم بن أحمد الملقب بالعلواني بن أحمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد الجبار بن ادريس بن ادريس بن إسحاق بن زين العابدين بن أحمد بن محمد بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه¹.

فهذا نسبه الموجود في العقود و لكن لم يعول الشيخ رضي الله عنه عليه، و إن كان محققا عند آباءه، حتى سأل النبي صلى الله عليه و سلم عن نسبه و حقه له، سمعته رضي الله عنه يقول: سألت سيد الوجود صلى الله عليه و سلم على نسبي هل أنا شريف أم لا؟ فأجابته صلى الله عليه و سلم أنت ولدي و كررها ثلاثا، فمن حين سمع تحقيق نسبه من سيد الوجود صلى الله عليه و سلم صرح بالشرف و جزم به، و ذلك لتحقيق نسبه في نفس الأمر، لأن سيد الوجود صلى الله عليه و سلم أخبره يقظة لا مناما.

¹ - عقد العلامة سكيرج رضي الله عنه هذا النسب الطاهر في أبيات من قصيدته الدالية الجميلية التي عارض بها دالية البوصيري رحمه الله، وقال في مطلعها:

سلب الغرام من الفؤاد تجلدي فالعين مني كحلت بتسهـد

إلى أن قال في موضوع النسب الشريف:

إن التجاني نجل من فاهت به الـ	علياء ذي الفتح العظيم محمـد
نجل الفتى المختار من خضعت له	أسد الوغى نجل السميدع أحمـد
نجل ابن سالم الرضى ذي الفتح من	من وجهه الداج استنار محمـد
نجل ابن سالم الرضى المولى أبي الـ	عيد ابن علوان كناية أحمـد
نجل المبجل أحمد بن علي الـذي	هو نجل عبد الله سعد الأسمـد
نجل الرضى العباس وهو لعابد الـ	جبار نجل يالسه من مولى الـ
نجل ابن إدريس الهمام الشيخ إد	ريس الرضى من فضله لم يجحـد
نجل ابن زين العابدين المرتضى	إسحاق نجل للمجد أحمـد
نجل الذي النفس الزكية نفسه الـ	مولى الرضى الليث الهصور محمـد
نجل الهمام الكامل الأوصاف عبـد	الله من هو طيب لب للمحتـد
نجل الرضى الحسن المثنى نجل سبـ	ط المصطفى الحسن الإمام المفرد
نسب من الأنداس طهر واكتسى	نورا أعز من النظر العسجـد

الباب الخامس في ذكر أجوبته عن الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية،
و رسائله و كلامه و إشارات، و ما سمعه من فيوض علومه و أسرار ه و تقريراته،
و فيه فصول

الفصل الأول في ذكر أجوبته عن الآيات القرآنية على طريق أهل الإشارة الربانية
اعلم أنه جعل في الجامع ترتيب هذه الأجوبة المنيفة، عن الآيات الشريفة، التي سئل عنها
سيدنا رضي الله عنه على توالي السور الكريمة، اقتداء بالكتاب العزيز، ليسهل على الناظر
مطالعنها و يبعد تشتيت الفكر عند مناولتها، و هو ترتيب حسن، إلا أنه في بعض المواضع
قدّم و أخر، على حسب ما سمح له به الوقت فيما سطر، و قد جمعنا جميع ما تفرّق في أبوابه
منها في هذا الفصل الجامع لللب ما في هذا المجموع على ترتيب أجوبة كتاب جواهر
المعاني، قصد التنبيه على الزيادات الواقعة في الجامع مقدما على الكل تبعاً له.

الكلام على البسمة و الفاتحة لما فيهما من جزيل الثواب، إلا أن أكثره تقدم في باب
الأوراد، و بقيت فائدتان عظيمتان لمن وفقه الله لهما، اقتضى المقام أن يكون هذا محلها،
الفائدة الأولى ذكر قدوتنا رضي الله عنه أن من قرأ البسمة متصلة بالفاتحة بنفس واحد
كانت له بقدية، هكذا ورد بسند متصل عزاه للشيخ الأكبر رضي الله عنه، أقول و قد ذكرت
هذا السند في كتابنا نور السراج، **الثانية** قال سيدنا رضي الله عنه في بعض نصائحه عند
تعرضه للكلام على الشكر ما نصه: ما وأعلى ذلك في شكر اللسان تلاوة الفاتحة في مقابلة ما
أنعم الله به على العبد شكراً، و لينو عند تلاوتها أنه يستغرق شكر جميع ما أحاط به علم الله
من نعمه عليه الظاهرة و الباطنة و الحسية و المعنوية، و المعلومة عند العبد و المجهولة
لديه، و العاجلة و الأجلة، و المتقدمة و المتأخرة، و الدائمة و المنقطعة، و يتلو بهذه النية ما
قدر عليه من الفاتحة من مرة إلى مائة، فمن فعل ذلك كتبه الله شاكراً، و كان ثوابه المزيّد من
نعمه على قدر مرتبته بحسب وعده الصادق و هذه الفائدة و إن ذكرت في الجواهر فلا بأس
بذكرها على الخصوص هنا تبعاً للأصل.

و من تمام الكلام على الفاتحة أيضاً ما قاله سيدنا رضي الله عنه: اعلم أن فاتحة الكتاب
العزيز مشتملة على جميع ما برز من عين الذات العلية، المنزهة المطلقة من الكتب الإلهية
و الأسرار العالية، و العلوم الربانية من علوم الأولين و الآخرين، و فيها أسرار الكائنات
بأسرها، ثم اعلم أن الله جلت قدرته لما أراد إيجاد الحقيقة المحمدية سبق في العلم الإلهي أن
الحقيقة الأحمدية هي عين الرحمة الإلهية، و مدد سريان القدرة الربانية، و المشيئة الإلهية
جارية على قوانين الرحمة الكاملة من كل مخلوق قل أو جل، ثم تجلى سبحانه و تعالى على
الحقيقة الأحمدية بالتجلي الجامع، و تجلى عليها بحقائق القرآن العظيم و علومه و أسرار ه
وفيوضاته و أنواره.

و قد اشتملت هذه الحقائق على ما أراد إبرازه و إبقاءه لكافة الوجود، من إيجاد و إمداد و إنعام
من نبوة و رسالة و قطبانية إلى آخر ما أنعم به على سائر الوجود، تجلى به جل و علا على
الحقيقة المحمدية دفعة واحدة في أم الكتاب، و نعني بها حقائق القرآن العظيم و أعني
بالحقائق تجليات الذات التي لم تكن لغيره صلى الله عليه و سلم أز لا و أبدا، لم يشذ منها شيء

في ذلك المقام من كل ما أراد إبرازه للوجود و سائر العوالم التي لم يعلم بها غيره صلى الله عليه و سلم، و قد قلنا دفعة واحدة، فعلم صلى الله عليه و سلم في ذلك التجلي أسرار الكائنات بأسرها، و علوم الذات بكمالها، فكان صلى الله عليه و سلم بهذه المثابة هو أصل الوجود، المفيض على الكل، و كل ذلك من معاني القرآن العزيز الذي أفاضه الحق عليه دفعة واحدة، فهو أم الكتاب، و لذلك سميت الفاتحة أم الكتاب، لأنها فتحت بها أبواب الرحمة الإلهية، وبدأها بالحمد عليه و الثناء، فهو صلى الله عليه و سلم في هذا المقام، و هذه المرتبة عين وهاء، فلا يعلم هذه المرتبة إلا من ذاقها، و في هذا المحل علوم ذاتية بعيدة عن الإدراك، و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.

و اعلم أنه تكلم في الجواهر في مقدمة هذا الباب على معنى قول أهل السنة رضي الله عنهم أن القرآن دال على كلام الله تعالى، ثم تكلم على التفضيل بين الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و بين تلاوة القرآن، و بسط في ذلك ما هو مرسوم في بابيه، و لمناسبة المقام أردنا أن نجتمع مع ما ذكره هنا رسالة قواعد العقل، المسماة بإزالة اللبس و الإيهام، فيما خفي على علماء الكلام، فإنها اشتملت على قواعد العقل عند المنحصرين في دائرته، و عند غيرهم من الكمل المحققين، و التنبيه على عبارات عند المتكلمين يجب تركها لركاكتها، و بيان عدم وصول العقل من نفسه إلى الإلهيات ما لم يستند إلى النص.

قال سيدنا رضي الله عنه: **قواعد العقل** هي أمور حسية أو فكرية انحصرت فيها وجود الأشياء من حيث ما تثبت وجوده، أو وجب عدمه مطلقاً من غير تقييد و لا اختصاص، من كل ما عدا ذات الله و صفاته و أسمائه، فكل موجود منها لا بد له من تناء، و غاية و انحصار في القدر و الكم، و كيفية يباين بها سواه، و لون و مادة، و هذا يعم ما صح فناؤه بعد الوجود و ما ثبت بقاؤه أبداً، فكل ما خرج منها عن هذا المقدار فلا يقبل الوجود، و لا يصح ثبوته، و من قال فيه بغير هذا كذب و وجب تركه، هذه إحاطة العقل عند المنحصرين في سجن العقل، و عند الصديقين أن هذا الحصر في أمر الله باطل محال، بل عند الله تعالى في أمره و علمه ما لا يتناوله حكم العقل، و لا يطبق حصره فيما حصر فيه الأشياء، و أن الذي أوقع أصحاب العقل في هذا هو عدم إدراكهم لما وراء طور العقل، فإنه سبحانه و تعالى أجل و أعز ممن ينحصر علمه أو أمره في إحاطة العقل.

قال سبحانه و تعالى: و لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء¹، و قال جل جلاله: و يخلق ما لا تعلمون²، و في مظهر المرأة العقلية فما يتجلى فيها للناظر أمر يخرج الناظر عن قواعد العقل، فإن الظاهر في المرأة هو أمر معلوم مجهول، موجود معدوم، مدرك غير مدرك، و هذه الأحوال فيه تخرج أمور العقل عن الإنحصار في طور العقل و الحس، فإن حقيقة أمور العقل لا يتأتى فيها انحصار شيء واحد يكون موجوداً معدوماً في الآن الواحد، ويكون معروفاً مجهولاً في لحظة واحدة، ويكون مدركاً و غير مدرك في آن واحد.

¹- سورة البقرة، الآية 255

²- سورة النحل، الآية 8

وَبهذا تعرف أن انحصار الأشياء في طور العقل و الحس باطل، و كذا في الأمر الحقيقي أن هناك أمرًا واحدًا يتصف بصفتين متناقضتين في الآن الواحد، لا يتأتى اجتماعهما في شيء واحد، و هو الآن الدائم عند العارفين، فإن حقيقته هو استمرار وجود الحضرة الإلهية، فلا بداية و لا نهاية، ثم هذا الوجود الواحد يتصف بكونه قديما أزليا بلا بداية و لا نهاية، ويتصف بكونه حادثا له بداية و نهاية، و هذا أكبر خروج عن دائرة العقل، فإن هذا الاستمرار إن أضيف إلى الحق سبحانه و تعالى كان كَمَا كَمَا وُصِفَ أولاً، و إن أضيف إلى الحوادث كَانْ كَمَا وُصِفَ ثانيا، و هو شيء واحد لا يقبل الإثنية، و لا يقبل المغايرة. و هذا أكبر دليل على ما قلنا من عدم انحصار الأشياء في العقل.

قال بعض العارفين: لما ظهرت الحقائق انعدمت فيها البدايات و النهايات، و عجب العقل بنفسه، و قال: أنا الفلك المكوكب ظنا منه أن ما ظهر من الحقائق هي منه و فيه و عنه و له و به، قالت الرياضه الأزمني و تعرف قدرك و هذه الرياضة هي الإنقطاع باطنا عن كل ما سوى الله، فإنه متى داوم هذا كانت كل لحظة منه بالنسبة لما بعدها كنقطة في بحر في إظهار الحقائق و العجائب و التجليات و العلوم و المعارف إلى الأبد، فيعرف حينئذ أنه لا شيء له مما رأى أنه مفاض عليه فقط، فإن الله عز و جل حكم على نفسه أن كل من انقطع إليه بالإعراض عن كل ما سواه يفيض عليه سبحانه و تعالى في كل لحظة من العلوم و المعارف و تجلي الحقائق و الأسرار و التجليات و المنح و العطايا و التحف ما يكون منه كل لحظة بالنسبة لما بعدها، أعني إلى اللحظة التي بعدها كنقطة في بحر، و إلى هذا أشار الجنيد رضي الله عنه بقوله: من أقبل على الله عز و جل ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاتة في تلك اللحظة أكثر مما أدركه في ألف سنة¹.

و إلى هذا أيضا يشير قرين مالك رضي الله عنه إذ كان بعد إدراكه مرتبة للعلم انقطع إلى الله انقطاعا كليا لا يلتفت إلى غير الله أبدا، و مالك أقبل على استنباط أحكام الفقه طول عمره، فكتب إليه: لو علمت ما فاتك في الإنقطاع إلى الله لبكيت عليه طول عمرك، يشير إلى ما ذكرنا، فكتب إليه مالك: ليس الذي أنت عليه بأفضل مما أنا عليه، كلانا على سبيل خير، و إلى قول المنقطع كانت الصحابة، لا يلتفتون إلى الفتوى و استنباط الأحكام، لاشتغالهم بما ذكرنا، و يردونها إلى التابعين في بعض الأحيان.

ثم نرجع إلى ما نحن بصددده و هو أن دليل العقل على الإلاهيات من نفسه باطل، إذا لم يستند للنقل الصحيح، قلت لسيدنا رضي الله عنه ما وجه بطلانه؟ قال إذا أثبت من الأوصاف ما هو ثابت عندنا بالنقل فلا فائدة إذن عنده، لأنه من تحصيل الحاصل، و إذا أثبت ما لم يرد به النص، فلا يلتفت إليه، لأن الإجماع على عدم إطلاق اسم أو صفة لم يسم الحق بها نفسه

¹ - أنظر الفتوحات المكية، للشيخ ابن عربي الحاتمي، الباب 73 في معرفة عدد ما يحصل من الأسرار للمشاهد (السؤال 124) 3: 206 و الباب 200 في حاصل الوصل 4: 196. وقد افتتح هذا الباب بقوله:

لو فاتنا ما فات لم تك صورة	و الوصل فينا درك ذاك الفائت
ما فات إلا كوننا لم نبغاه	فإذا ابتغينا كان ثبت الثابت
وبه تفاضلت الرجال فمنهم	حي وذاك الحي عين المائت
والميت ميا ليس يعرف موته	و الناطق المعصوم عين الصامت

تصريحا أو ضمنا، فإذا فهمت هذا تبين لك بطلان وجه الدليل العقلي على الألوهية إذا استبد بنظره، و ظهر لك أن الحجة القطعية في هذا الفن هو الخبر المتواتر لا العقل وحده، لأن النقل المتواتر قطعي بإجماع، و هو حجة الله على خلقه، قال عز من قائل: و ما كنا نعذبين حتى نبعث رسولا¹، و قال عز وجل: رسلا مبشرين و منذرين ليلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل²، إلى غير هذا من الأخبار.

و قد سأل صاحب الإبريز شيخه رضي الله عنهما جميعا ما الفائدة في تقديم السمع على البصر و هو أشرف منه؟ قال له: نعم، و لكن في السمع فائدة واحدة لو تعطلت لبطلت حجة الله تعالى على خلقه بالكلية، و هي أخباره على السنة رسله عليهم الصلاة و السلام، و في هذا أيضا أقوى دليل على أن حجة الله على خلقه هي الأخبار السمعية لا العقلية، قلت لسيدنا رضي الله عنه: ما قلتم هو الصواب، و لكن للمخالف أن يقول أن العقل هو مناط التكليف، و إذا بطل نظر العقل بالكلية بطل التكليف، لأن الإجماع على أن غير العاقل لا تكليف عليه، قال رضي الله عنه: لا يلزم هذا، و لا يرد علينا لأننا نحن نتكلم على بطلان حكمه إذا ادعى الإطلاع على حضرة الربوبية باستبداد نظره وحده من غير اعتماد على شاهد النقل الصحيح، هذا هو الذي أبطلناه، لأنه محجر على كل عقل أن يصله بفكره أو حدسه.

و إذا فهمت هذا علمت أن الوصول لحضرة الربوبية و الإطلاع عليها لا يكون إلا من طريق النبوة، أو بفتح من الله على بعض خواصه، و كلاهما بعيد عن نظر العقل، و دليل صحة هذا الكلام أن الدليل النقلى معصوم من الزيغ و الضلال، قال سبحانه و تعالى: لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه³، الآية، و أما الدليل العقلي فليس بمعصوم من الخطأ في كثير من قضاياها، بل كل من استند إليه و أعرض عن طريق الخبر جملة لا تجده إلا ضالا، و من تأمل مذاهب أهل الضلال من هذه الأمة وجد سبب ضلالتهم تحكيمهم للعقل في كثير من الأمور، كقياسهم الغائب على الشاهد، و قالوا: ما حسنه العقل فهو الحسن، و ما قبحه كذلك، و حكموا باستحالة العفو على الكافر، و هو خطأ صريح، حتى من جهة العقل.

و هذا الفساد كله جاء من طريق العقل، حتى نسبوا ما هو مقرر عندهم في قواعدهم و هو أن شرط القياس المساواة، فسوّوا بين الفاعل المختار الذي عنده الأشياء على حد السواء في الخلقة، و لا تفضيل بينهما إلا من عنده، و بين خلقه العاجز عن نفع نفسه فضلا عن غيرها، و ما جاء هذا الغلط إلا من عدم التقرييق بين الحكمة و المشيئة، و الغفلة عندهما عند تقرير أحكامهم، و لو تقطنوا للفرق بينهما و تكلموا في كل مقام بما يناسبه لم يقعوا في هذا التخليط، و لكن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، نسأل الله أن يصرف قلوبنا فيما يحبه و يرضاه أمين.

قال سيدنا رضي الله عنه تفكرت قاعدة تهدم جميع قواعد العقل التي أسسوها من كونه يتوصل إلى الإلهيات بأدلته من نفسه، و ذلك أن مدار العقل و إدراكه و غاية وصوله

¹- سورة الإسراء، الآية 15

²- سورة النساء، الآية 165

³- سورة فصلت، الآية 42

المحسوسات، و لا يقدر أن يجاوزها إلى الغيب الإلهي، إلا أن يستند إلى غيره من خبر النبوءة، فإن فهم هذا تبين أن كلما نصب العقل من الأدلة على الإلهيات من نفسه فهو فيها غير مصيب، و إنما الدليل عليها خبر النبوءة فقط كما قدمنا، فهو الأصل¹، و دليل العقل تابع له فقط، و غاية ما يحصل للعقل من دليhle من نفسه حكمه بالإستحالة و الإمكان على ما يصله من دائرة المحسوسات.

و أما الوجود الواجب فلا يقدر أن يحكم له بشيء من جهة نفسه، فإن قيل إذا لم يكن للعقل اطلاع على الغيوب و حكم عليها بنفي و إثبات من نفسه كما ذكرتم بطل حكمه كله، و لم يخاطبه الحق سبحانه و تعالى بمطالبة النظر و الاعتبار في بعض الأمور، قلنا خطاب الحق جل و عز له تنزل له بحسب دائرة وسعه، و أودع فيه قوة ليفهم الخطاب و يتقطن لما يراد به، و منه ليكلفه فيعمل بمقتضى ما سمع، لا ليستند لنفسه في الأحكام، فلما أحس العقل بما أودع الله فيه من القوة المذكورة، و أسمع الله خبره الصادق على لسان النبوءة أخذ يساميه، و ينسب لنفسه الأحكام الغيبية التي كانت محجوبة عليه قبل سماع الخبر، فسمّى حكمه قطعياً، و الخبر إقناعاً.

ثم قال سيدنا رضي الله عنه: و الدليل على أن العقل لا وصول له إلى الألوهية من نفسه أيضاً، لأن إدراكه من بدايته إلى نهايته المحسوسات، و هي في غاية المخالفة و المناقضة للألوهية بكل وجه و اعتبار، فلا نسبة بين القديم و الحادث، و العقل من الثاني، فلا مطمع له في الوصول من نفسه إلى القديم، لما ذكرنا من عدم المناسبة بينهما، و ذلك ظاهر.

فإن قيل: إذا صح ما ذكرتم من العقل، و أنه لا يتجاوز دائرة حسية و ما ماثلها، و بطل وصوله من نفسه للغيب الإلهي كما ذكرتم بطلت النبوءة من أصلها و بطلت الأخبار الإلهية جملة، لأن صدورها لا يكون إلا من نبيء، و هو بشر، و قلتم أن الإنسان لا وصول له إلى الإلهيات من نفسه، بل لا يتوصل لها إلا من خارج، و هو الخبر، و هذا الخارج لا يصح إلا بخارج كما ذكرتم، و كذلك هذا الثاني لا يصح إلا بخارج ثالث، و هكذا فيؤدي إلى التسلسل، و هو محال، قلنا لا يلزم ما ذكرتم من إبطال النبوءة و إبطال الأخبار الإلهية، و إن بطل وصول العقل للغيب الإلهي من جهة نفسه، و ذلك لأن النبي و إن كان إنساناً من جملة البشر فهو ليس كالبشر في كل وجه، بل هو كياقوتة بين الحجر، لأن الحق سبحانه و تعالى باختياره و محض فضله أودع في باطنه نورانية صافية في غاية الصفاء، معارة له من حضرة الحق، يشاهد بها المغيبات حساً عينياً، فهي له بمثابة البصر لنا، فكما نشاهد المحسوسات ببصرنا، فكذلك الأنبياء يشاهدون الغيوب، فلا شك و لا ريب، و لا غلط فيما يشاهدونه من الغيوب،

¹ - من هذا القبيل قول الشيخ ابن عربي الحاتمي في أبيات له:

من طلب الدين بالكلام	زَنَدَقَهُ الشَّرْعُ وَالسَّلَامُ
فاعدل إلى الشرع لا تزده	فَإِنَّهُ كُلُّهُ حَرَامُ
فإن علم الكلام جهل	يرمي به الحال والمقام
ما الدين إلا ما قال ربي	أَوْ قَالَ السَّيِّدُ الْإِمَامُ
رسوله المصطفى المرجى	عليه من ربه السَّلَامُ

والدليل على صحة هذا إخبارهم بالمغيبات، فإنه لا يقع فيها اختلاف، و لو في ذرة واحدة، بل لا تقع إلا على طبق ما أخبروا به في نفس الأمر.

فإذا فهمت هذا تبين لك أن طريق الوصول للإلهيات هو خبر النبوءة فقط، و لا سبيل للعقل إليها من جهة نفسه كما قدمنا، قال سيدنا رضي الله عنه و أما الدليل على صحة الخبر الإلهي فهو المعجزة، و الدليل على صحة المعجزة كونها خارجة عن طوق البشر، و لم تمكن معارضتها بوجه من الوجوه، و معلنة بصدق محلها، و من أتى بها من نفسها لا من خارج، و ادعى كون معرفتها دورية كما قاله بعض المتكلمين باطل، فإن قيل يلزم مما ذكرتم من إبطال حكم العقل و وصوله من نفسه إلى الغيب الإلهي تغليط من تكلم في علم الكلام، لأن مدار كلامهم في فهمهم على حكم العقل، و فيهم أئمة الهدى من أهل السنة كالإمام الأشعري، و القاضي و الأستاذ و القطب سيدي محمد السنوسي و غيرهم رضي الله عنهم أجمعين، قلنا: لا يلزم ما قلتم في حقهم، لأن من تأمل كلامهم رضوان الله عليهم و جدهم كلهم و اقفين مع النقل الصحيح، و لم يقل أحد منهم ببطلان الدليل العقلي، بل لا يقولون بصحة الدليل العقلي في غير المحسوسات، إلا إذا وجدوا له ما يعضده من النص، بل أكثر أدلة العقل عندهم موضوعة للفهم في خبر الله و خبر رسوله، و لذلك اشتغلوا بتحريرها ليعلم منها أدلة النقل، و لأنهم يقولون أن من يفهم أدلة النقل على الصواب لا يحتاج لتركيب الدليل العقلي وإنما يحتاج له من لم يفهم معاني الأخبار.

و هذا دليل على أن مدار مذهب أهل السنة رضي الله عنهم هو الوقوف مع النقول الصحيحة، و أما ما مالوا إليه في مبنى قواعدهم على الدليل العقلي في هذا الفن إنما قالوا به حين فاضت المبتدعة، فأرادوا الرد عليهم بما بنوا عليه أصلهم الفاسد قبجهم الله، و ظن أهل الحق رضوان الله عليهم أنهم يسدون ما خرقتهم الفرق الضالة بأقيسة العقل و حدسه، فاتسع الخرق عليهم، و كثرت الشبهة، لأن تخمينة العقل لا تقف على رأي واحد، فما صححه هذا يظهر بطلانه لغيره و هكذا، فلهذا كثر الخلاف بينهم و اتسع ميدان الكلام للمعاند، و هذا و الله أعلم هو سبب ترجيحهم الدليل العقلي.

و لا يظن مؤمن بأئمة الحق و الدين أنهم يقولون إن الدليل النقلي المتواتر غير قطعي في هذا الفن و غيره، و لكن حملتهم حمية الدين أن يردوا على أهل الضلال بما هو الأقوى عندهم، فأداهم ذلك رضوان الله عليهم إلى أن رجحوا العقل، و حضوا على تعليم تركيب أدلته، فكثرت الشبه، و وجد المعاند فسحة للكلام، و رضي الله عن الإمام أحمد بن حنبل حين كان في زمان محنة أهل السنة، إذا كلمته المعتزلة بأدلة العقل يقول ما أدري، و لا يكلمهم إلا بما يقطع حجتهم و يبكتهم من كلام الله و قول رسوله صلى الله عليه و سلم، لأنه حد محدود، لا يقدر المعاند على هتكه، فليس له إلا الانقياد له، أو يَبْقَى على عناده من غير تلبيس الحق بالباطل، بخلاف الدليل العقلي، فإنه دائما يجد التلبيس فيه.

فإن قلتم: يفهم من هذا أن أئمة الكلام لم يعلموا ما كانت عليه الأوائل، حيث كان يفحم الخصم و يقطع حجته جملة من غير تعب، و عدلوا عنه لما يجد الخصم فيه متسعا للكلام كما قدمنا، قلنا حاش لله أن ينسب فرسان العلم من أهل الحق لعدم العلم بما نفهموه، و نحن في غاية

القصور، و لكن عدلوا عما وقفت عنده الصدور الأولى و الله أعلم لأمرين، الأول هو ما قدمناه من ردهم على أهل الضلال بما يرونه أنه الأقوى عندهم، ظنا منهم إذا ارتكبوا هذا يردونهم عن ضلالتهم، فلم يقع إلا ما أَراده الله، الثاني قال بعض أهل الحق: ليس للعالم أن يعلم كل مسألة، و لعل فحول الأئمة غفلوا عن هذه المسألة، و هي ما كانت عليه الأوائل من الوقوف مع النصوص الصريحة، و تركهم تخمينات العقل لئلا يكثر الضلال في الأمة و قد وقع، قال سبحانه: ليقضي الله أمرا كان مفعولا¹، و لأن العالم غير معصوم من الزلل، قال مالك رضي الله عنه: كل كلام يؤخذ منه و يرد إلا كلام صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم، و يعلم الله المتأخر ما لم يعلمه المتقدم، قال صلى الله عليه و سلم: أمتي كالمطر² إلى آخر الحديث.

تنبيه قال شيخنا رضي الله عنه: أكثر كلام أهل علم الكلام على تقدير سؤال سائل، و هو أن يقول المعاند من أين لكم خبر الله فأرادوا ثبوته له من دليل خارج عنه، فأخذوا في تراكب العقل فأدأهم إلى كثرة الكلام، و وجد المعاند للقول مجالا، و لو أجابوه بما أجابه به الشرع صلى الله عليه و سلم، و هو إما أن تسلّم أو تؤدي الجزية عن ذل أو السيف لأدمغوا الباطل بالحق، و وافقوا الصواب بديهية، قال سبحانه و تعالى: بل نقذف بالباطل فيدمغه فإذا هو زاهق³، و لا يؤخر لنظر العقل سواء عربي أو عجمي لا فرق، ثم بعد ذلك إذا انقاد للحق يعلمونه شيئا فشيئا على التدرج، لو فعلوا هذا لأراحوا نفوسهم من تعب قياس كثرة الحجج للمعاند، و وافقوا الحق بديهية من غير مشقة، و انسد ما خرقته المبتدعة، قال صاحب القصيدة رضي الله عنه:

لولا أنمتنا للرد قد سبقوا
لم نلتفتهم سوى بالبيض و الأسل

و لكن لا يقع إلا ما أَراده الله، فأراد سبحانه تفريق هذه الأمة شيئا، فأضلهم عن الحق، و غطى الجواب الذي فيه إرشادهم على من أراد رجوعهم للحق من أهل السنة كما ذكرناه سابقا، قال عز من قائل: و من يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئا⁴، نسأل الله التوفيق للحق في القول و العمل، آمين.

فصل في الكلام على التنبيه الذي قدمناه على عبارات عند المتكلمين التي قلنا يجب تركها، منها قولهم ما أول الواجبات على المكلف، و خلافهم فيها، مع أن أول الواجبات معلوم عند كل مسلم، و هو ما ذكره الشارع من الكلمة المشرفة لا غير، لقوله صلى الله عليه و سلم:

¹- سورة الأنفال، الآية 42

²- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: مثل أمتي كالمطر، يجعل الله في أوله خيرا وفي آخره خيرا، أنظر مجمع الزوائد للهيثمي (كتاب علامات النبوة) باب ما جاء في فضل الأمة: 10: 56 رقم 16707، مسند الشهاب الفُضاعي 2: 276 رقم 1349، الدرر المنتثرة للحافظ السيوطي (حرف الميم) 1: 244 رقم 386. كنز العمال للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2432 رقم 34569.

³- سورة الأنبياء، الآية 18

⁴- سورة المائدة، الآية 41

أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله¹ الحديث، و كذلك حديث جبريل المعلوم الذي قال فيه ما الإسلام؟ الحديث²، و قد سئل مالك رضي الله عنه عن التوحيد فقال: هو ما دخل به الرجل الإسلام، و قال الشافعي رضي الله عنه: من خاض في علم الكلام فكأنه دخل البحر في هيجانه، و قال أبو حنيفة رضي الله عنه: قاتل الله عمرو بن عبيد فإنه فتح للناس باب الخوض في الكلام فيما لا يعنيههم.

و قال بعض المحققين: ما كانت قط زندقة أو بدعة أو كفر أو جرءة على الله إلا من قبل الجدل و الخوض في علم الكلام، و قال: و عليكم بتترك الجدل فإن الله تعالى يقول: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا³، فإذا كان أئمة الحق رضي الله عنهم سدوا هذا الباب، و هم على ما عرف من حالهم من هداية الخلق و النصيحة لهم، مع غزارة العلم و الولاية، و هو الخوض في جانب الربوبية بالعقل، فكيف نفتحه مع قصور هممنا، و كثرة الفتن في زماننا، بل لا يسعنا إلا اتباعهم رضي الله عنهم.

¹ - إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحق الإسلام، و حسابهم على الله، أنظر صحيح البخاري (كتاب الإيمان) باب فإن تابوا و أقاموا الصلاة و أتوا الزكاة فخلوا سبيلهم رقم 25، (كتاب الصلاة) باب فضل استقبال القبلة رقم 390، (كتاب الزكاة) باب وجوب الزكاة و قول الله تعالى و أقيموا الصلاة و أتوا الزكاة رقم 1381، (كتاب استنابة المرتدين) باب قتل من أبى قبول الفرائض و ما نسبوا إلى الردة رقم 6773. (كتاب الاعتصام بالكتاب و السنة) باب الإقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم

² - أنظر صحيح الإمام مسلم (كتاب الإيمان) باب بيان الإيمان و الإسلام رقم 59

³ - سورة غافر، الآية 4

و منها قولهم الدليل العقلي قطعي و النقلى إقناعي، قال سيدنا رضي الله عنه: و هذا من الفرية في الدين، و هي قولة شنيعة يجب تركها و الإعراض عنها، و منها تأويلهم لما ظاهره محال في النص إذا أرادوا التعيين فيما فسروه به من المعنى، قال الشيخ الأكبر هي من المباهة و منها كلامهم في القدر المنهي عنه لغفلتهم عن الفرق بين الحكمة و المشيئة إذا تكلموا على أفعال العباد، فعلم صلى الله عليه و سلم أن العقول لا تقدر على الخوض فيه إلا من فتح عليه، فحجره عليهم بقوله: إذا ذكر القدر فأمسكوا¹، فارتكبوا ما نهوا عنه، واجتهدوا في تبين ما أخفاه الله، فكلما أرادوا أن يظهره بالعبارة زادوه تغطية، لأن ما أراد الله إخفاءه لا يقدر مخلوق على إظهاره، وهذا من هذا القبيل²، و منها قولهم ترجيح العفو على العقاب، و بعبارة ترك المؤاخذة، و العفو أحسن من المؤاخذة، و قد قالوا: العادة قاضية و العقل مشير إلى التجاوز، و الصفح أحسن من العقوبة و الانتقام، و ثناء الناس على العافي أكثر من ثنائهم على المنتقم.

¹ - إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، أنظر مسند الحارث 2: 750 رقم 752، جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع الذال) 1: 207 رقم 1349، كنز العمال للمتقي الهندي (المجلد الأول) 1: 45 رقم 901.
² - مما يناسب هذا الموضوع قول العارف بالله سيدي عبد الغني النابلسي ضمن قصيدة له قال في مطلعها:

وتظهر وادخل إلى الإسلام
أنزل الله فهو خير كلام
بالذي جاء فيه باستسلام
فعليه البيان للأفهام
سيد المرسلين خير الأنام
تجد الحق والصواب النامي
مستريباً بعقلك المستهام
يفتح الله فيه بالإنعام
أنك المؤمن الجليل المقام
تبعوا ما يقول أهل التعامي
في بيان الأعراض والأجسام
ظاهر للعيان غير الأسامي

تب إلى الله من علوم الكلام
سلم الدين للكلام الذي قد
هو قرأنا المبين فآمن
واطلب الفهم من إلهك فيه
واعرف السنة التي ثبتت عن
وتأمل ما قال ربك فيها
وإذا لم تفهم فكن مؤمناً لا
واجعل الصبر منك زاداً إلى أن
وإذا لم يفتح فحسبك منه
واحترز من آراء أهل عقول
إن علم الكلام محض كلام
هو جرح للدين ما فيه أمر

إلى أن يقول:

رسل الله أصدق الأقوام
لعلوم المهيمن العلام
أو يرى موقظا عيون النيام
تترقى به إلى الأسقام
فيه بالله والنبي التهامي
خالصا عن شوائب الإنبهام
هـ وإدراكها على أقسام
ها هو الموت مسرع الإقدام
لست تدري من الأمور العظام
مؤمناً مذعناً لنيل المرام

قلد الله يا ابن قومي وقلد
إن تكن مؤمناً بربك أسلم
لا تظن الدليل يهدي إليه
هو للعقل سلم للمعاني
كن بإيمانك المقلد واقنع
لا تفارق تقليد شرعك محضاً
كيف تدري العقول معرفة الله
لمتى أنت هكذا في غرور
فتحفظ من حكم عقلك فيما
لا تخض بالعقول في ذلك واقعد

قال سيدنا رضي الله عنه: هذا القول لا يصح، و بيانه إذا كان ترك المؤاخذة أكمل منها لزم أن المؤاخذة و الإنتقام ممن أوعده الله نقص، و هو محال في حق مولانا جل و علا، لأننا نقول صفة الكرم في حق مولانا أكمل من صفة القهر و الإنتقام، بل جميع صفات مولانا كاملة لا تقبل نقصا و لا زيادة، إذا فهم هذا علم أن العفو و المؤاخذة سيات في حق مولانا تبارك و تعالى، و كل منهما كمال في حقه جل و عز، لأنه كما يتجلى باسمه الكريم يتجلى باسمه المنتقم، و مستند من قال العفو أحسن من المؤاخذة القياس في قياس القديم جل و علا على أفعال الحادث، و هو لا يصح هنا، لأنه ميل إلى التحسين و التقبيح العقليين، و هو لا يصح عندنا، نعم أما ما حسنه الشرع فهو الحسن، و ما قبَّحه فهو القبيح، و العقل تابع عندنا للشرع، قال الجزيري رضي الله عنه:

و الحسن للعقل و التقبيح أوقعهم و نحن للشرع حكم إن يقل نقل

و كذلك ينشأ من التحسين و التقبيح العقليين مراعاة وجوب الصلاح و الأصلح الذي لا ينبغي في حق من له الإختيار التام في كل فعل أو حكم قال الإمام الجزيري:

و رعي أصلح لا تصغى لبدعته فإنه مذهب أيضا لمعتزل

و إيضاح ما سبق لك أن تقول أن الأشياء بالنسبة إلى قدرة مولانا جل و علا على حد السواء، لا ترجيح لجانب الوجود على العدم، و لا لجانب الكمال على النقص، و حقيقة العالم على هذا كله واحدة، و العقل السليم قاض بهذا للمولى أزلا و أبدا، فإذا نظرت إلى المشيئة و تخصيصها من وجود هذا و ترك هذا في العدم، و فضل هذا و نقصان هذا، مما ظهر في الحكمة مرتبا على ما سبق في تخصيص المشيئة، تبين لك الأمر و علمت الفرق.

قال سيدنا رضي الله عنه: لأن جميع الموجودات منوطة بالمشيئة و الحكمة، مرتبة على ما سبق في المشيئة، و لهذا قال أهل الحق: لو تغيرت ذرة من العالم عن موضعها لتعطلت الألوهية بالكلية و هو محال، قال سيدنا رضي الله عنه: و بيانه أن ترتيب جميع الأشياء سبق تفصيله في المشيئة أزلا و أبدا، فلو انكشف الحجاب رئي هذا عيانا، و زال الريب، و على هذا فإن الترتيب المذكور قديم أزلي بقدم الصفة، و لا يتوهم من هذا أن الأشياء قديمة، لأنه لا يلزم، نعم إن أسماء الحوادث قديمة، و أما ترتيب الأشياء في علم الله من زمان و مكان و مقدار و صفة إلى غير هذا فإنه قديم أيضا، و ما رأيت أحدا أو سمعته يبين هذا الفرق بسهولة سوى قدوتنا رضي الله عنه، و ما زال عنا الثقل و طرح الحمل حتى فهمنا هذا عنه رضي الله عنه.

و سألته رضي الله عنه عن الوعد و الوعيد، و ما قيل فيهما من أن الوعد واجب لا يمكن تخلفه، و الوعيد قد يتخلف في البعض لا في الكل، ما الدليل عليهما، فأجاب رضي الله عنه: أما الوعد دليله السمع، قال تعالى: إن الله لا يخلف الميعاد¹، و قوله عز و جل: وعد الله لا

¹ - سورة الرعد، الآية 31

يخلف الله وعده¹، و كذلك العقل قاض بهذا، و أما الوعيد فليس كذلك، و جوابه تقدم في قولهم ترك المؤاخذة، و العفو أحسن من المؤاخذة، فراجعه إن شئت و السلام، انتهى.

و سئل رضي الله عنه عن عدد الحسنات الوارد في فضل تلاوة القرآن لكل حرف، هل هي سواء في العدد، سواء دل اللفظ على ذات الحق أو على الخلق، أو هي متفاوتة بحسب الدلالة؟ فأجاب رضي الله عنه بأن العدد الوارد من العشرة إلى المائة لكل حرف هو مستوي لا تفاوت فيه كما توهم بعض، لأن الفضل المذكور فيه كونه صادرا عن الذات المقدسة، ومدلولا للكلام الأزلي، فمن هذه الحيثية كله واحد، لا التقات فيه لمدلولات الألفاظ، كما يلوح للعقل القاصر، فهذا هو الحكم الحق فيه إلا ما خرج بالنص ك بعض السور و الآيات، فذلك مزية محصورة على محلها، لا يقاس عليها غيرها كما هو مذهب الأصوليين، و هو الحق و السلام.

و سألتني سيدنا رضي الله عنه عن المألوهات هل عبادتها للذات أو بالأمر؟ فقلت له: بالأمر، فقال رضي الله عنه: أما الإجلال و التعظيم و الخضوع و التذلل تحت سطوة القهر فهو للذات واجب من كل مخلوق، و لو لم يكن أمر، حيوانا كان أو جمادا، عاقلا أو غير عاقل، لأنها كلها عابدة لله بهذا الوجه، و أما العبادة بالكيفية و التصورات كالركوع و السجود و غيرها من الكيفيات المحدودة فهي بالأمر، كأنه يقول سبحانه و تعالى: لا يبلغ قدركم هذا و لكن تقضت عليكم برفع قدركم إلى هذه المراتب، و لن تصلوا إليها إلا بالأمر، فأمرتكم بها، فقلتُ لشيخنا على هذا إن المكلفين بهذه الكيفيات المحدودة لهم شرف على غيرهم من الحيوانات و الجمادات العابدين من غير كيفية، فقال: لا فرق في عبادتها بالكيفية إلا عند المحجوب، و أما من رفع عنه الحجاب فيراها كلها ساجدة و مسبحة حقيقة بلسان قولها لا بلسان حالها كما عند أهل الظاهر، انتهى كلامه بالمعنى رضي الله عنه.

و سئل عن قوله تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله²، فأجاب بما في الجواهر من غير زيادة و لا نقص، إلا أنه فيه تقديم و تأخير في تليق الجواب و الله الموفق.

و سئل رضي الله عنه عن قوله تعالى: قال رب أرني كيف تحيي الموتى³، في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام و عن قوله تعالى: يا زكرياء⁴. إلخ، فأجاب بما في الجواهر حرفا بحرف، ثم قال و أجاب عن الآية التي في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام بجواب غير ما تقدم، و أبين منه و أوضح، ثم ذكر ما في الجواهر من الجواب عنها بالخصوص.

و سئل سيدنا رضي الله عنه عن بعض الآيات الواردة في حق الأنبياء عليهم السلام، بعد أن وقفت على كلام بعض العلماء رحمهم الله فيها مما لا يليق بمنصب النبوة و الرسالة

1- سورة الروم، الآية 6

2- سورة آل عمران، الآية 31

3- سورة البقرة، الآية 260

4- سورة مريم، الآية 7

والملكية، منها قوله تعالى: إنا فتحنا لك فتحا مبينا¹. و غيرها من الآيات التي يأتي ذكرها بعد إن شاء الله، فأجاب بما في الجواهر، إلا أنه قال في الجامع عند قوله: و أما ضر سيدنا أيوب عليه السلام ما نصه: سئل سيدنا رضي الله عنه عن قوله تعالى: و أيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر². ما المراد بهذا الضر الذي مسه حتى طلب من الله كشفه؟ أهو ضر البدن كما يقوله أهل التفسير، أو غيره كما في الإبريز؟ و لا نظن صاحبه يقوله لأنه قطب، و إن العارف لا يلتفت لغير الله، فكيف يقال هذا في حق الرسول.

قال بعض العارفين: فلو كلفت أن أرى غيره ما استطعت، و كلام العارفين في هذا المعنى كثير، و إذا كان هكذا فكيف يتصور الإلتفات في حق الأنبياء عليهم السلام؟ فأجاب رضي الله عنه بقوله: اعلم أن الضر الذي ذكره أيوب عليه السلام لا طريق إلى الجزم بتعيينه بشيء إلا من قبله صلى الله عليه و سلم، و لم يحفظ عنه في هذا الباب شيء، فوجب التوقف عن تعيينه لعدم النص فيه، انتهى.

و أما ما قاله في الإبريز من الإلتفات لغير الله الذي صورته الغفلة عن الله و السهو عنه بمتابعة الهوى³، فهذا لا يتأتى في حق العارفين، فكيف بالنبیین عليهم الصلاة و السلام، و إنما الإلتفات لغير الله عند العارفين هو الجولان في أسرار المراتب نزولا عن صرافة التوحيد، فإن الصديق الكامل لا بد له من الأمرين، و هما الوقوف في صرافة التوحيد و الجولان في أسرار المراتب، فإن الصديق لو وقف في صرافة التوحيد دائما مستغرقا فيها عن مشاهدة المراتب لم يكن صديقا كاملا حينئذ، و لا يصح للخلافة و لا للنبياة عن الله تعالى، لإخلاله بكمال المرتبة، فإن الكامل له الوقوف في المرتبتين، الأولى صرافة التوحيد، فإنها لا تقبل الغير و الغيرية إلا واحدا من كل وجه، و أما الثانية فهي مرتبة المراتب، و هي مراتب الوجود الصورية، فإنه يلزمه في كل مرتبة أحكام و لوازم و مقتضيات و تجليات، و له في كل شيء أعمال و وظائف، إذا وقى بما كملت له المرتبة، و إذا لم يكملها كان ناقصا.

فلو أن العارف وقف في صرافة التوحيد باختياره متغافلا عن المراتب كان غير قائم بحقوق الله تعالى، متلعبا بأمره، و لا يطلق عليه اسم الكمال، إنما صورته صورة المجذوب الأحمق، و النبيئون و الصديقون لهم كمال الوقوف في صرافة التوحيد، و لهم كمال الوقوف في التوفية بحقوق المراتب، فوقوفهم في صرافة التوحيد لا يحجبهم عن وفاء حقوق المراتب، و توفيتهم بحقوق المراتب لا يحجبهم عن الوقوف في صرافة التوحيد، فإن موسى عليه السلام كان في زمان رعايته لغنم شعيب عليهما الصلاة و السلام، كان جاء يوما إلى وادي كثير الذئاب، و غلبه النوم حتى علم أن قواه تعطل من النوم، و لا يبقى عقل في حفظ الغنم، و علم إن نام غارت الذئاب على الغنم و أفسدتها، و تمكن عجزه عن حفظ الغنم من الذئاب، فقال حينئذ: أحاط بكل شيء علمك، و نفذ في كل شيء حكمك، ثم نام، فلما استيقظ

¹- سورة الفتح، الآية 1

²- سورة الأنبياء، الآية 83

³- أنظر الذهب الإبريز، لأحمد بن مبارك اللمطي عند تفسير قوله تعالى: و أيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر، إهـ.. ص 260

وجد عصاه على رقبة ذئب من الذئاب، و هو يجول بها و يطرد الذئاب بها عن الغنم، فقال يا رب ما هذا؟ فقال الله له: يا موسى كن لي كما أريد أكن لك كما تريد.

فإنه كان في حفظ الغنم ما كانت قواه متمكنة من التصرف، و عقله متمكنا من التمييز والتصرف في حفظ الغنم و رعيها، و لما انعدمت الأسباب لثبوت عجزه رجع لمراقبة التوحيد، فحفظها الله تعالى، فثبت من هذا أن التصرف في المراتب ليس هو حجاب عن الله، فمراقبة التوحيد هي الذات المقدسة، و المراتب هي صفات الله و أسمائه، فالموجودات لا تعقل الذات المقدسة من حيث ما هي إلا بتعقل صفاتها و أسمائها، فالمراتب هي اسم الله و ليست غيره، لأن المراتب هي ذوات الموجودات، و كل ذرة من الموجودات لها اسم من أسماء الله، و صفته من صفات الله، فلا تخلو ذرة من هذا، و تلك الأسماء و الصفات هي ظاهرة في مضمرة الذات المقدسة، أعني الصفات و الأسماء، فلا يرى العارف في المراتب كلها إلا الله وحده، و في شهود المراتب ما هو محجوب على الله، إنما يرى الله عيانا، و ميله عن صرافة التوحيد إلى المراتب ما هو ميل لغير الله، و لا التفات عنه إلى غيره، لأن صرافة التوحيد تنعدم فيها النسب و الصفات و الأسماء، و أما المراتب فإن الله عز و جل متجلي فيها بصفاته و أسمائه، و لكل صفة أو اسم حدود و تجليات، و علوم و معارف و أسرار و آداب ليست في غيرها، فنتبين لك أن تقلب العارف في المراتب، و جولانه في أسرارها و خواصها و مقتضياتها و لوازمها أمر لا يسعه تركه، لا ما قل و لا ما جل، فهذا هو الذي يطلق عليه التلطف لغير الله تعالى، فنتبين لك أن النبيئين عليهم الصلاة و السلام لا يعييون في صرافة التوحيد للغبية عن المراتب، لأن ذلك إخلال بمرتبة الألوهية، أعني بأداب حقوقها، فلا تلتفت حينئذ، انتهى.

و سألت سيدنا رضي الله عنه عما ذكر بعض المعبرين في حق سيدنا داوود على نبينا و عليه الصلاة و السلام أنه تمنى كذا بقلبه، و أمر الرجل بكذا ليفعل هو كذا، فأجاب رضي الله عنه بقوله: معاذ الله أن يصدر هذا من المعصوم، و إنما حكى الله عنه أن الخصمين اختصما في نجاج من الغنم لا غير كما قال سبحانه و تعالى إن هذا أخي له تسع و تسعون نعجة¹ الآية، و من المعلوم عند المحققين أن القرآن لا يفسر إلا بالخبر الصحيح، و لا يصرف عن ظاهره إلا إذا كان مستحيلا، و كلا الأمرين منتف هنا، فلا خبر صحيح يعتمد عليه، و لا قرينة تصرفه عن الظاهر.

قال عياض رضي الله عنه: و أما قصة داوود عليه السلام فلا يحل أن يلتفت إلى ما سطره فيها الأحباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا و غيروا، و نقله بعض المفسرين، و لم ينص الله على شيء من ذلك و لا ورد في حديث صحيح ثم قال بعد هذا المحل: قال الداودي ليس في قصة داوود خبر يثبت، و لا يظن بشيء محبة قتل مسلم، انتهى، و إذا فهمت هذا تبين لك أن الآية على ظاهرها و ليس ما قيل من التأويل الذي ينبغي حتى في صالح عامة المؤمنين، فكيف يقال في صفوة الله هذا التأويل الشنيع، نعوذ بالله من التخليط.

¹ - سورة ص، الآية 23

قال الإمام المحقق سيدي محمد السنوسي رضي الله عنه: و لا تصغ لجهالة المفسرين، وكذبة المؤرخين فيما ينسبونه لصفوة الله الأنبياء، مما لا يليق بمراتبهم العالية، انتهى، قلت لسيدنا رضي الله عنه فمِمَّ تاب سيدنا داوود عليه السلام؟ قال من ظنه أنه أخطأ في الحكم فقط لا غير كما أخبر الله بقوله عز و جل: و ظن داوود أنما فتناه¹ الآية، قلت له: ظنه ليس بذنب في نفس الأمر، قال: أكابر الصديقين ليسوا كغيرهم، فإنهم يؤاخذون بمثاقيل الذر كما قدمنا، لأن الحضرة مطلوبة بالأدب، فمن كان فيها و غفل أو نسي و لو في أقل قليل يؤاخذ عليه، و لم يعذر كغيره، انتهى، و هذا الجواب ذكره في الجواهر مبسوطا أكثر من هذا، مع نوع مخالفة، و نسبه لصاحب الجامع، و ليس في الجامع إلا ما تقدم و الله أعلم.

و سألته رضي الله عنه عما حكى الله تعالى عن الخليل عليه السلام في قوله تعالى: إني سقيم²، و قوله تعالى: فعله كبيرهم هذا³. و في الخبر هي أختي لزوجته، فأجاب رضي الله عنه بما في الجواهر مع زيادة بسط اقتضى أن نذكر هذا الجواب هنا من محمل المخالفة منبها عليها لتتم الفائدة، قال رضي الله عنه: فكل هذه القولات الثلاث مباحة للخليل عليه السلام فإنه مشرع و خليفة، فعل ذلك بإذن إلهي، فلا توزن أفعاله و لا تقاس على غيره، لأنه ما أراد بها إلا الحق، فكل ما صدر منه فهو موافق لشريعته، فهذا غاية ما يذكر في حقه عليه الصلاة و السلام إلى أن قال: و إذا فهمت هذا علمت أن الذنوب التي ذكرت في حق الرسل عليهم الصلاة و السلام، و الأفعال التي صدرت منهم في صورة المخالفة إنما فعلوها للوجه الذي ذكر فيما تقدم.

و أما قوله تعالى: و عصى آدم ربه فغوى⁴ الآية. قال سيدنا رضي الله عنه فهو في الصورة لا غير، بدليل أنه سبحانه و تعالى ذكر عذره، قال تعالى: و لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي، و لم نجد له عزما، و في الشرع أن الناسي لا يؤاخذ، و لكن الكمل من عباده ليسوا كغيرهم كما قدمنا، فقلت لسيدنا: فإذا كانت مخالفته ليست بذنب، فلما ذكر الله توبته؟ قال: من صورة المخالفة، لأنها في الظاهر ذنب، و إن كانت في نفس الأمر ليست بذنب، لأنه فعلها ناسيا كما تقدم في الآية، و إنما العتاب و المؤاخظة في الغفلة عن الآداب، و عدم العلم بالوجه المطلوب فعلا أو تركا كما تقدم.

قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: و الله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لنقصه، و إنما أنزله إلى الأرض ليكمله، فلم يزل آدم عليه السلام راقيا إلى الله تعالى تارة على معارج التعريف و التخصيص، و تارة على معارج الذلة و المسكنة، و هو التحقيق الأتم، و يجب على كل مؤمن أن يعتقد أن النبي و الرسول لا ينتقلان من حالة إلا إلى حالة أكمل منها، و افهم قوله سبحانه و تعالى: و للآخرة خير لك من الأولى⁵. ثم قال: و إذا عرفت هذا فاعلم أن الحق سبحانه و تعالى له التدبير و المشيئة، و كان قد سبق من تدبر مشيئته أنه لا بد أن

¹- سورة ص، الآية 24

²- سورة الصافات، الآية 89

³- سورة الأنبياء، الآية 63

⁴- سورة طه، الآية 121

⁵- سورة الضحى، الآية 4

يعمر الأرض بنو آدم، و أن يكون منهم كما شاء محسن و ظالم لنفسه مبين، و كان من تدبير حكمته أن لا بد من تمام ذلك و ظهوره إلى عالم الشهادة، فأراد الحق سبحانه و تعالى أن يكون تناول آدم الشجرة سببا لنزوله إلى الأرض و نزوله سببا لظهور مرتبة الخلافة التي من بها عليه، ثم قال: و الله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه، كما قال سبحانه و تعالى: إني جاعل في الأرض خليفة¹. فمن حسن تدبير الله لأدم أكله من الشجرة، و نزوله إلى الأرض سبب إكرام الله إياه بالخلافة و الإمامة، ثم قال:

فائدة اعلم أن أكل آدم الشجرة لم يكن عنادا و لا خلافا، فإما أن يكون نسي الأمر فتعاطى الأكل و هو غير ذاك، و يحمل عليه قوله سبحانه و تعالى: و لقد عهدنا الآية. انتهى. قال شيخنا أبو العباس التجاني رضي الله عنه اعلم أن في أكل آدم الشجرة آية للمعتبرين، و أسوة للتائبين، من إظهار باهر قدرة الله، و عجائب صنيعه، و موافقته لما سبق في مشيئته من اجتناب آدم، و خلافته بسبب مخالفته، و طرد إبليس و لعنه و إهانته بعد اصطفائه، و تعبه بكثرة عبادته، ليعلم أن الشقاوة و السعادة ليستا مرتبطتين بالعلل، و إنما السعيد من سعد في الأزل، و الشقي كذلك، و لذلك إن إبليس لما طرد بسبب مخالفته لأمر ربه، و كتب قلم الشقاوة الأبدية عليه، أخذ يغضب مولاه و يعانده و يتوعدَّ عباده بالغواية، كما حكى الله عنه، قال له سبحانه و تعالى: فاخرج منها فإنك رجيم، و إن عليك اللعنة إلى يوم الدين² لأنك مخلوق لنفسك، و تعبك لحظك و شهواتك، و ما رأيته في بدايتك فهي ملابس مستعارة لك، و الأصل هو طردك و شقاوتك، و لذلك خلقتك، أما آدم فمخلوق للسعادة الأبدية، و النعم السرمدية، و الخلافة العظمى، فشتان ما بينهما.

فمن ذلك صار إبليس مظهرا للغواية و الضلال، كما كان سيد الوجود، و علم الشهود صلى الله عليه و سلم مظهرا للهداية و التوفيق و السعادة، فهما في عالم الحكمة عينان متقابلتان، في غاية المصادمة و التناقض، و لهذا قال صلى الله عليه و سلم: بعثت داعيا و ليس لي من الهداية شيء، و بعث إبليس غاويا و ليس له من الغواية شيء³.

و ما ذكرناه من المظهرين فهو في الحكمة، و أما في المشيئة فإبليس فرع عن الحقيقة المحمدية، لأنها هي الأصل في كل مظهر في الوجود بأسره فردا فردا، و السلام، انتهى، و أما نبوة سيدنا آدم عليه السلام فقد تقدم الكلام عليها في قوله تعالى: و النجم إذا هوى. الآية.

و أما قوله تعالى: و لقد همت به و هم بها⁴. الآية. حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام. قال شيخنا رضي الله عنه: همَّ بها يحتمل همَّ بالمعصية، و يحتمل همَّ بالبطش بها غضبا لما طلبته

¹ - سورة البقرة، الآية 30

² - سورة الحجر، الآية 34-35

³ - ومنه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: بعثت داعيا ومبغا وليس إلي من الهدى شيء، وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شيء. إهـ. أنظر جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الباء مع العين) 4: 23 رقم 9954. الفتح الكبير، للحافظ السيوطي (حرف الباء) 2: 8 رقم 5153. كنز العمال، للمثقي الهندي (المجلد الأول) 1: 35 رقم 546.

⁴ - سورة يوسف، الآية 24

بفعل الفاحشة، فأما إن قلنا هم بالمعصية، فالعصمة مانعة منها، فلم يبق إلا كونه هم بالبطش بها غضبا لولا أن رأى برهان ربه، فلما رأى البرهان تركها، إذ علم من البرهان أنه معصوم، و أما قوله و ما أبرئ نفسي¹. أقول: في الجواهر قبل قوله و ما أبرئ نفسي زيادة كلام في البرهان و قد وافق الجامع في الكلام على قوله و ما أبرئ نفسي إلى قول الجواهر، لأن الله أيدهم بروح منه، و من أيده الله لا تتأتى منه المخالفة للحق، و لو في حنف أنفه.

زاد في الجامع قال رضي الله عنه: و أما غيرهم من البشر فإنهم على أقسام، فمنهم من بشريته حاكمة عليه، إن شاءت فعلت و إن شاءت تركت، فالحكم لها على الإطلاق، و منهم من تارة و تارة و هم عامة المؤمنين، و منهم من له قوة قامعة لبشريته، و لكن دون قوة الأنبياء، و لذلك لم تثبت لهم العصمة و إن بلغوا ما بلغوا في ارتفاع القدر، و لذلك لما سئل إمام القوم الجنيدي رضي الله عنه هل يفعل العارف كذا و كذا؟ أطرق ساعة ثم قال: و كان أمر الله قدرا مقدورا².

و من هذه البشرية المحكوم بها لجميع بني آدم يعلم أن ما ذكر بعض الناس في هاروت وماروت من تمنيتهم للمعصية باطل و لا يصح، لأن الميل للشهوات ليس من طبع جنسهم، قال تعالى في حق جنسهم: عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون³، ثم قال شيخنا رضي الله عنه: و لا يصح في حق هاروت و ماروت إلا ما ذكرته الآية، و ليس في الآية ذكر معصيتهم و لا عذابهم، فعلى المؤمن العاقل أن يعتقد النزاهة و الطهارة في حق من طهره الله من الدنس، فيسلم من جميع الاحتمالات التي لم يعلم لها أصل صحيح، انتهى.

قال صاحب الإبريز سألت الشيخ رضي الله عنه عن اختلاف عياض و ابن حجر في قضية هاروت و ماروت فإن الأول أبطل الأحاديث الواردة فيها، و الثاني أثبتها و تبعه الحافظ السيوطي، قال في كتابه الحبانك أنه استوفى طرقها في تفسيره الكبير، فقال له رضي الله عنه: الحق مع عياض رحمه الله، انتهى⁴.

و من كلامه رحمه الله أن الأنبياء عليهم أفضل الصلاة و السلام معصومون قبل النبوة و بعدها، و قال أيضا: نزول الوحي يتبع خواطر الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، فإذا خطر ببال النبي شيء أو تحدث به في نفسه نزل الوحي به، و بدأ تعلم أن خواطرهم كلها حق، و أن وساوسهم كلها من الله، و قال في قوله تعالى: و تخشى الناس و الله أحق أن تخشاه⁵، و في قوله تعالى عفا الله عنك⁶. الآية. قال: تحدث في باطنه فنزل آية تفضحهم، و إنما منعه هو من أن يباشر فضيحتهم للرحمة التي فيه و وصية الله له، فتحدث في باطنه بفضيحتهم على وجه

¹- سورة يوسف، الآية 53

²- سورة الأحزاب، الآية 38

³- سورة التحريم، الآية 6

⁴- أنظر الذهب الإبريز، لأحمد بن المبارك اللمطي، عند شرح قوله صلى الله عليه وسلم وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة. إهـ. ص 244

⁵- سورة الأحزاب، الآية 37

⁶- سورة التوبة، الآية 43

يبين كونها من الله لا منه للحياء الذي فيه، فأحب أن تنزل الآية في صورة العتاب له لتكون أبعد عن التهمة، و أدخل في محض النصيحة، و أزر لهم عن الإشتغال بالنفاق مع النبي صلى الله عليه و سلم مرة أخرى، فنزلت الآية على ما في خاطره، فإن الله تعالى هو وكيله على من ينافقه و خصيمه و حجيجه، فنظمت صورة هذا العتاب مصالح شتى، و في الباطن لا عتاب، و إنما ناب الحبيب عن حبيبه في المخاصمة لا غير، و لا ينبغي لأحد أن يظن بالنبي صلى الله عليه و سلم أنه كان لا يعلم الصادق من الكاذب من المعتدلين، و كيف يخفى عليه ذلك و المفتوح عليه في هذا الزمان يعلم الصادق و الكاذب منهم في ذلك الزمان، و أهل الفتح إنما نالوا ما نالوا بمحبته صلى الله عليه و سلم، فسقوا بمقدار شعرة من نوره صلى الله عليه و سلم، انتهى، من الإبريز¹.

قال شيخنا رضي الله عنه أما ما ذكره هذا الولي الكبير في قوله تعالى: و تخشى الناس، و في قوله تعالى عفا الله عنك. الآية. فهو ظاهر و هو الحق، و أما غيرها من الآيات الواردة في حق الأنبياء فلم يظهر فيها هذا الوجه الذي ذكره رضي الله عنه، و الله أعلم بمراده، انتهى، و يجب على المؤمن المحافظ على إيمانه أن يحفظ لسانه و باطنه من تهور الكلام في المراتب التي طهرها الله و قدسها من جميع الدنس، و هم الرسل و الأنبياء و الملائكة عليهم السلام، انتهى.

وسئل سيدنا رضي الله عنه عن قوله تعالى: و لو أنهم إذ ظلموا جاءوك فاستغفروا الله. الآية. فأجاب رضي الله عنه بما في الجواهر و زاد في الجامع زيادات بعد ذكره لبعض محببات الأعمال حتى قال: وكذلك سب الصحابة رضوان الله عليهم لما ذكر في الحديث أنه لا يقبل منه صرف و لا عدل ثم قال عقبه، و كذلك سب أهل بيته، لأنه يؤذيه صلى الله عليه و سلم، و من آذاه ملعون في كتاب الله، فمن باب أخرى إذهاب حسناته، فكل ما كان من المحببات في ذات الفعل تحبط العمل الذي وقعت فيه لا تتعدى لغيره.

¹ - أنظر الذهب الإبريز، لأحمد بن المبارك اللمطي، عند تفسير قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، ص 272-274

و الدليل على كل واحدة من المحببات الخارجة عن الفعل كما قال سيدنا رضي الله عنه أما صلاة العصر ففي البخاري عنه صلى الله عليه وسلم من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله¹ ، وفي رواية كأنما وتر أهله وماله وولده². إه.. وأما القذف، ففي مسلم: من قذف محصنة مومنة أحبب الله له عمل مائة سنة³. إه، وأما أكل الأجرة ففيه: من ظلم أجيراً أجرته أحبب الله عمله، وحرم عليه ريح الجنة، وريحها يوجد من خمسمائة عام⁴، ذكره في الخطبة الأخيرة عنه صلى الله عليه وسلم، وأما سب الصحابة، ففيه قوله صلى الله عليه وسلم: من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل منه صرف ولا عدل⁵، وأما سب آله وإذائته فقال صلى الله عليه وسلم: لا تؤذوني في قرابتي، فمن آذاهم فقد آذاني، قلت: ومن آذاه لا تكتب له حسنة، وأما الدوام على أكل الحرام فإن دليhle في النصيحة الكبيرة لسيدنا رضي الله عنه، فانظره إن شئت، والمحببات الخارجة عن الفعل هي التي تحبط كل عمل تقدمها.

وسئل سيدنا رضي الله عنه عن قوله تعالى: لقد تاب الله على النبيء والمهاجرين والأنصار، ما معنى هذه التوبة في حقه صلى الله عليه وسلم؟ فأجاب بما في الجواهر، ثم قال: قلت له: ولعله هذا معنى الآية إن الله يحب التوابين⁶، قال لي: نعم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: لو لم تذبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون فيغفر لهم⁷، فهذه فائدة مقارفة الذنوب لهذه الأمة. قلت له: إن في العادة المعروفة كل من يكثر الذنوب فهو مُصر، لأن الغالب أن التائب لا يكثر من صدور الذنوب، وإن كان يكثر الذنوب مع كثرة التوبة فهو متلاعب، لأن كثرة التوبة سبب في الهروب من مقارفة الذنوب، كما هو المعروف عند المسلمين فيمن تاب من ذنبه يهرب حتى من قرب أسبابه، فضلا عن مواقعه فيه.

¹ - رواه الإمام البخاري في صحيحه (كتاب مواقيت الصلاة) باب إثم من ترك صلاة العصر رقم 546، باب التكبير بالصلاة في يوم غيم رقم 587

² - رواه الإمام البخاري في صحيحه (كتاب مواقيت الصلاة) باب إثم من فاتته العصر رقم 545، صحيح الإمام مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) باب التغليظ في تقويت صلاة العصر رقم 1368 رقم 1370

³ - من هذا القبيل ما رواه الحافظ البخاري في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات. إه.. صحيح البخاري (كتاب الوصايا) باب قول الله تعالى إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا. رقم 2707. (كتاب الحدود) باب رمي المحصنات رقم 6705. صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب الكبائر وأكبرها رقم 222.

⁴ - من حديث نبوي طويل، أنظر مسند الحارث 1: 309 رقم 206

⁵ - أنظر مجمع الزوائد، للهيثمى (كتاب علامات النبوة) باب ما جاء في حق الصحابة 9: 747 رقم 16426، رقم 16424. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الميم مع النون) 7: 38 رقم 20702. الفتح الكبير، للحافظ السيوطي (حرف الميم) 3: 196 رقم 11844. مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الفضائل) ما ذكر في الكف عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم 7: 550 رقم 28154.

⁶ - سورة البقرة الآية 222

⁷ - أنظر مجمع الزوائد، للهيثمى (كتاب التوبة) باب منه في سعة رحمة الله 10: 363 رقم 17627

فقال رضي الله عنه: النص ثابت وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ولو عاد في اليوم سبعين مرة¹. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم إذا اعترف العبد بذنبه ثم تاب منه تاب الله عليه². فلا يلتفت مع هذا لأقوال الناس ولا لعوائدهم، رب ذنب أدخل صاحبه الجنة، قال صاحب الحكم: رب معصية أورتك ذلا وافتقارا، خير من طاعة أورتك عزا واستكبارا³، ثم قال الشيخ: يتوب العبد المرة تلو المرة فلا يتوب، فإذا تاب الله عليه مرة واحدة تاب، قلت له: ما معناه؟ قال: إذا لم يرد الله بالتوبة لا يترك فعل الذنوب و لو تاب ألف مرة عنها، فإذا أراد الله بالتوبة منها و تاب عليه لم يرجع إليها أبدا، و لم تكتب عليه إذا فعلها، لما قدمناه من الأخبار، و إذا لم تكتب عليه فهو تائب منها و لو فعلها ألف مرة، و لهذا قال بعضهم لا يكون البذل بدلا حتى يبقى أربعين عاما و لم يكتب عليه صاحب الشمال.

ثم قال الشيخ رضي الله عنه: و معنى هذا أنه مهما صدرت منه سيئة تاب منها في الحين، لا عدم فعلها منه أصلا، و مذهب شيخنا رضي الله عنه أن قبول التوبة قطعي كما صرح به في آخر شرح جوهرة الكمال، و وافقه شيخه الشيخ محمود الكردي رضي الله عنهما. قال الله تعالى إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة⁴. الآية. و قوله تعالى: إلا من تاب وأمن و عمل صالحا. الآية. و قوله تعالى: و هو الذي يقبل التوبة عن عباده⁵. إلى غير هذا من الآيات و الأحاديث الدالة على القبول أنه قطعي، لأنه وعد التائب بالقبول و وعده لا يخلف عند أهل الحق.

فإن قيل على مذهب الجمهور: القبول القطعي المستفاد من الوعد يمكن أن يكون في بعض الأفراد و لا يلزم منه العموم، قلت: إن هذه الآية المذكورة عامة في جنس التائب، و لا دليل على خصوصها لفرد دون آخر، و أيضا إن الكريم إذا وعد بأمر لا بد من وفائه عند أهل الحق، و في التعبير بصيغة الماضي في الخبر المتقدم، و هو قوله صلى الله عليه وسلم: تاب الله عليه إشارة إلى تحقيق الوقوع، لأن تلك حقيقة الماضي في اللغة، فإن قيل أيضا على مذهب الجمهور: لو كان القبول قطعيًا لزم أن لا يعود للذنب من تاب منه، قلنا: لا يلزم بل كلما أذنب يجب عليه أن يتوب منه، و لا يكون نقضا للتوبة الأولى للخبر المتقدم، و هو قوله صلى الله عليه وسلم: و لو عاد في اليوم سبعين مرة، و قوله التائب من الذنب كمن لا ذنب

¹ - إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة، إهـ.. أنظر مسند الشهاب القضاعي 2: 13 رقم 788، مسند أبي يعلى (مسند أبي بكر الصديق) 1: 124 رقم 135، جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الميم مع الألف) 6: 238 رقم 18439. الفتح الكبير، للحافظ السيوطي (حرف الميم) 3: 80 رقم 10479، الأذكار للنووي، باب الدليل على أن دعاء المسلم يجاب بمطلوبه أو غيره، وأنه لا يستعجل بالإجابة 1: 403 رقم 1227.

² - من حديث طويل رواه الحافظ البخاري في صحيحه (كتاب التفسير) باب قوله تعالى لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين. إلخ.. رقم 4632، (كتاب الشهادات) باب تعديل النساء بعضهن بعضا رقم 2609، (كتاب المغازي) باب حديث الإفك رقم 4052، صحيح مسلم (كتاب التوبة) باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف رقم 6969.

³ - أنظر الحكم العطائية الكبرى، رقم الحكمة 96

⁴ - سورة النساء، الآية 17

⁵ - سورة الشورى، الآية 25

له، و قوله صلى الله عليه و سلم: لو لم تذنّبوا الحديث، فإذا قدر الله على العبد ذنبا رجع إلى التوبة و هكذا، فهذا ما كلف به.

و أما عدم فعل الذنب فلا طاقة له به، و في قوله عز و جل: إن الله يحب التوابين¹. إشارة إلى اعتناؤه بعبده التائب من ذنبه و قبول توبته، و لو لم يقبل الله توبته ما أحبه، و كذلك فرحه بعبده التائب دليل على قبول توبته، و لا يلزم من قبول التوبة أنه قطعي أن تقطع للتائب بالسعادة كما ألزمه المقابل، لأن ذلك أمر مغيب، و عاقبته مجهولة لا تدري، و هذا الذي قطع أكباد الفحول بالخوف، و إنما نحن نتكلم على ما يظهر من نصوص الكتاب و السنة، و أما السعادة فليست متوقفة على العمل الصالح، و كذلك الشقاوة ليست متوقفة على أفعال الذنوب، و إنما الأعمال علامات في الظاهر على ما سبق، و قد توافق ما في نفس الأمر و قد تخالف، لأن اللاحق لا يكون سببا في السابق، و لذلك قال صلى الله عليه و سلم: و لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: و لا أنت يا رسول الله، قال: و لا أنا إلا أن يتغمّدني الله بالرحمة². قال بعض المحققين إن العبد إذا تاب و وقى الشروط كلها و بقي على الاستقامة ظاهرا و باطنا فإن قبول توبته قطعي، انتهى، معنى عبارته.

قال شيخنا رضي الله عنه إذا أراد شخصا بعينه لا يقطع له على مذهب الجمهور إلا أن يزداد بعد قوله ظاهرا و باطنا، و كان سعيدا في الأزل، و إن أراد عموم التائب فالتوبة مقطوع لهم بقبولها، و لا بد من طائفة يقبل الله توبتهم، و لكن القبول المقطوع به في زيد و عمرو هو المنفي عند الجمهور، و قالوا قبول التوبة زيد و عمر ظني لا قطعي، و أما في الجملة فهو واقع، و فروا من القطعي لزيد و عمرو لجهل الخاتمة، لأن الأعمال بالخواتم، و لخبر يعمل الرجل بعمل أهل الجنة³ الحديث. قلت للشيخ: لا فرق بين توبة العاصي و الكافر على مذهب الجمهور، لأن العاقبة مجهولة في كل منهما بالنظر إلى أفراد كل جنس فكيف قطعوا بقبولها للكافر دون العاصي؟ قال: ما قلته صحيح، لأنهما بالنظر إلى المشيئة سواء، و إنما حكموا بالقطع لقبول توبة الكافر لورود النص فيه بعينه، و مخالفة النص الصريح خروج عن رتبة الشريعة، و إن حكموا له بالقطع لقبول توبته فلا يحكم له بالسعادة لجهل عاقبة أمره كيف يكون عند الله، و كذلك لا يحكم على كافر بعينه أنه شقي لجهل أمر مآله، انتهى، بالمعنى.

قلت للشيخ رضي الله عنه أن بعض من ينتسب إلى العلم سئل يوما و أنا حاضر عن قوله تعالى ثم تاب عليهم ليتوبوا⁴ في حالة قراءته فوق كرسيه، فلم يدر ما يقول. قال الشيخ رضي الله عنه: لو كنت أنا لقلت رش عليهم من نوره، فتابوا بسبب ذلك النور المنصب عليهم، و هو المعبر عنه بقوله تعالى: ثم تاب عليهم، انتهى.

¹- سورة البقرة، الآية 222

²- رواه الحافظ البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق) باب القصد و المداومة على العمل رقم 6316 رقم 6320 (كتاب المرضى) باب تمنى المريض الموت رقم 5545، صحيح مسلم (كتاب صفة القيامة) رقم 7063، 7065، 7066 و 7071.

³- من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه (كتاب بدء الخلق) باب ذكر الملائكة رقم 3138 (كتاب الأنبياء) باب خلق آدم و ذريته رقم 3262.

⁴- سورة التوبة، الآية 118

و سئل رضي الله عنه عن قوله تعالى: و عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو¹ الآية، فأجاب رضي الله عنه بما في الجواهر، و زاد في الجامع عقبه: قال صاحب الإبريز رضي الله عنه قلت للشيخ: فإن علماء الظاهر اختلفوا هل كان صلى الله عليه و سلم يعلم الخمس المذكورة في قوله تعالى: إن الله عنده علم الساعة² الآية. فقال رضي الله عن ساداتنا العلماء و كيف يخفى أمر الخمس عليه صلى الله عليه و سلم و الواحد من أهل التصرف من أمته الشريفة لا يمكنه التصرف إلا بمعرفة هذه الخمس³.

و كذلك سألته رضي الله عنه عن قول العلماء في معرفة ليلة القدر أنها رفعت على النبي صلى الله عليه و سلم، و لهذا قال: اطلبوها في التاسعة في السابعة في الخامسة⁴، و لو بقيت معرفتها عنده عليه السلام لعينها لهم، فقال رضي الله عنه: سبحان الله، و غضب ثم قال: والله لو جاءت ليلة القدر و أنا ميت، و قد انتقخت جيفتي، و ارتفعت رجلي كما تنتقخ جيفة الحمار لعلمتها و أنا على تلك الحالة، فكيف تخفى على سيد الوجود صلى الله عليه و سلم، و قد عينها لنا في أعوام، و كذا كان يعين لنا ساعة الجمعة، انتهى⁵.

و سئل رضي الله عنه عن حديث الغرائيق⁶، و عن قوله تعالى: و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبيء إلا إذا تمنى⁷. الآية. فأجاب رضي الله عنه بجواب نفيس عنها و عن حديث الغرائيق، و بسط الكلام على ذلك أطول مما في الجواهر في فصل إزالة اللبس، و وضوح التحقيق في بطلان حديث الغرائيق، و حيث جمع السؤال الأمرين فلنذكر الجواب في هذا المحل تبعاً للجواهر، قال رضي الله عنه: إن حديث الغرائيق باطل و زور لا يصح الإلتفات إليه، و لا التعلق به، و كل من يقول بصحته من العلماء فتلك زلة من زلاته لا يتابع عليها، و لا يحل الاقتداء به فيها، فقد قال صلى الله عليه و سلم: اتقوا زلة العالم فإنه يهلك بهلاكه خلق كثير⁸.

¹- سورة الأنعام، الآية 59

²- سورة لقمان، الآية 34

³- أنظر الذهب الإبريز، لأحمد بن المبارك اللمطي، لدى تفسيره لقوله تعالى: إن الله عنده علم الساعة. ص 283

⁴- منه ما رواه الحافظ البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب فضل ليلة القدر) باب تحري ليلة القدر في الوتر رقم 1997.

⁵- أنظر الذهب الإبريز، لأحمد بن المبارك اللمطي، لدى تفسيره لقوله تعالى: إن الله عنده علم الساعة. ص 284

⁶- هو حديث طويل ضعيف، رواه الطبراني مرسلًا، أنظره في مجمع الزوائد (كتاب التفسير) 7: 172 رقم 11186 (كتاب المغازي والسير) باب الهجرة إلى الحبشة 6: 37 رقم 9850.

⁷- سورة الحج، الآية 52.

⁸- قريب من هذا الحديث ما جاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي قال: قال معاذ رحمه الله: احذروا زلة العالم، لأن قدره عند الخلق عظيم، فيتبعونه على زلته، وقال عمر رضي الله عنه: إذا زل العالم زل بزله عالم من الخلق.

و أدلة إبطاله في الوضوح كالشمس، منها تعقل رتبته صلى الله عليه و سلم في الحضرة الإلاهية، و كمال علمه بالله تعالى، و بما عليه الحضرة الإلاهية فيما أراد إظهاره لخلقه من صفاته و أسمائه، و الثاني كمال عصمته صلى الله عليه و سلم من طوارق الشيطان، و كمال يأس اللعين من أن يوقعه في خطأ أو ضلال، أو ما لا يرضي الله تعالى، و الثالث كمال عصمة الوحي من كل خبال أو باطل، أو تخيل أو سهو، أو زيغ أو جهل ببعض أموره، لقوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر و إناله لحافظون¹، و الرابع أن الله أقامه صلى الله عليه و سلم مقام نفسه، حيث قال: من يطع الرسول فقد أطاع الله، أما الأول و هو تعقل رتبته صلى الله عليه و سلم، فله فيها كمال العلم بالله، و كمال علمه بالحضرة الإلاهية، فلا يطرأ على شمسه الشريفة في الحضرة أفول و لا غيم، و لا التباس و لا تخيل، فهو في ذلك كله على مرتبة تامة.

فلا شك أن من عرف هذه الحالة فيه صلى الله عليه و سلم بالضرورة ينكر هذه القضية، ويتركها بأمر لا يجله عالم، إلا من كان بليد الطبع، و شاهد هذا أنه صلى الله عليه و سلم هو نور أعيان جميع العوالم، فما في العالم عين من عيون الله إلا و نورها مستفاد من نوره صلى الله عليه و سلم، و هو المفيض على تلك العيون أنوارها، و إفاضته صلى الله عليه و سلم عليها من وجه يحيط بها علما، و يحيط بما يسقطه عليها من الأنوار، فهو يعلم كل عين فردا فردا، و يعلم كلما يفيضه عليها بمقدار معلوم، لا يحيف و لا يجور، و هذا في كليات العالم و جزئياته من كل ما أحاط به العلم الأزلي، فكيف يخفى عليه التباس الشيطان من الملك مع هذه الحالة.

و كيف يتأتى هذا و هو في حديث تقرير الإسلام و الإيمان و الإحسان بعد مضي الوحي بزمان كثير، قد جاءه جبريل عليه الصلاة و السلام في صورته غير المعهودة، قال الراوي: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أن قال: فلما قام جبريل و ذهب قال صلى الله عليه و سلم: أتدرون من السائل، قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم²، ثم قال صلى الله عليه و سلم: ما خفى علي جبريل إلا في هذه الساعة لم يخف عليه كونه ملكا، و التبس عليه بغير جنسه من آدمي أو غيره، و خفى عليه كونه جبريل في أول لحظة عند إتيانه باستغراقه في عظم التجليات، فلما التقت إليه بسره ميزه عن جنسه، فكيف يلتبس عليه الشيطان و يظنه جبريل، فهذا في غاية البعد الثاني لكمال عصمته صلى الله عليه و سلم من الشيطان إلقاء أو إضلالا أو تلييسا.

و دليله من وجوه الأول قوله صلى الله عليه و سلم: لا عصمة إلا لنبيء الثاني قوله سبحانه و تعالى في خطابه اللعين: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان³، و العباد الذين ذكر الله هم الصديقون و الأقطاب، و النبيئون و المرسلون، و هو صلى الله عليه و سلم بهذه المرتبة لا يوازنه أحد من خلق الله، الثالث قوله سبحانه و تعالى في حق يوسف عليه الصلاة و السلام

¹- سورة الحجر، الآية 9

²- من حديث طويل رواه الإمام مسلم (كتاب الإيمان) باب بيان الإيمان و الإسلام رقم 59

³- سورة الإسراء، الآية 25

كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء أنه من عبادنا المخلصين¹، هذا في يوسف عليه السلام، فكيف به صلى الله عليه و سلم، فأحرى أن لا يتطرق إليه الشيطان، الرابع قوله تعالى: و ادع إلى ربك إلى مستقيم²، الخامس قوله تعالى: و إنك لعلى خلق عظيم³، السادس قوله تعالى: إنا فتحنا لك فتحا مبينا إلى مستقيما⁴، السابع قوله تعالى: من يطع الرسول فقد أطاع الله⁵، الثامن قوله تعالى: و إن تطيعوه تهتدوا⁶، التاسع قوله تعالى: فالذين آمنوا به و عزروه و نصروه إلى المفلحون⁷، العاشر قوله تعالى: إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله⁸.

هذه الآيات كلها شاهدة و مصرحة بكمال عصمته صلى الله عليه و سلم من طروق الشيطان إليه إلقاء و تلبيسا و إضلالا، أو أن يقع منه صلى الله عليه و سلم ما يجب له في الحضرة الإلهية شيئا أو عيبا أو إيهاما بقليل ما مما يكرهه الله منه، فلم يبق بعد هذا إلا كمال العصمة من إلقاء الشيطان إليه أو تلبيسه عليه، و فيما ذكر كفاية.

و أما كمال عصمة الوحي فقد قال في حقه سبحانه و تعالى: و ما تنزلت به الشيطان و ما ينبغي لهم و ما يستطيعون⁹ الآية، و قال سبحانه و تعالى فيها: إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب¹⁰. و قوله عز و جل في الآية الأخرى في حق الشياطين: لا يسمعون إلى الملائحة الأعلى إلى دحور¹¹. بل إلى قوله ثاقب، كما تقدم في الآية فهذا حكم عصمة الوحي في السموات العلا لئلا يختلط الدين أو يختلط الهدى بالضلال، هذا و هو في السموات العلا لم ينفلت بخطفة واحدة، فكيف يقدر أن يقرب حضرة النبي صلى الله عليه و سلم و يخلط عليه الوحي، حتى يظن صلى الله عليه و سلم أنه كلام، فيخاف الكفر على من ازدري برتبة النبي صلى الله عليه و سلم حتى ظن بهذا الظن الخبيث، كيف و هو سبحانه و تعالى يقول: إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون¹²، و قال سبحانه و تعالى: لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه¹³. الآية. و قوله سبحانه و تعالى: قرأنا عربيا¹⁴، و قوله سبحانه و تعالى: فاستمسك

1- سورة يوسف، الآية 24

2- سورة الحج، الآية 67

3- سورة القلم، الآية 4

4- سورة الفتح، الآية 1

5- سورة النساء، الآية 80

6- سورة النور، الآية 54

7- سورة الأعراف، الآية 157

8- سورة الفتح، الآية 10

9- سورة الشعراء، الآية 210

10- سورة الصافات، الآية 10

11- سورة الصافات، الآية 9

12- سورة الحجر، الآية 9

13- سورة فصلت، الآية 42

14- سورة يوسف، الآية 2

بالذي أوحى إليك¹ الآية و قوله سبحانه و تعالى: ذلك الكتاب لا ريب فيه². و قوله سبحانه و تعالى: وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه³. الآية.

فكيف يحتمل التعرّيج على تلك القضية أو يظن صحتها مع ظهور هذه الآيات البينة الواضحة المعاني، و لم يكن الله سبحانه و تعالى يبئلي نبيه صلى الله عليه و سلم بمثل هذه القضية الخبيثة، و هو يقول سبحانه و تعالى: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً إلى قوله صراطاً مستقيماً⁴، و قوله سبحانه و تعالى: قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين إلى قوله مستقيم⁵، و قوله سبحانه و تعالى: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم⁶ الآية. إلى غير ذلك من الآيات المصرحة بمثل هذا. و هي كثيرة في القرآن، فلا شك أنه يبين للناظر و المعتبر لها تكذيب هذه القضية في حقه صلى الله عليه و سلم.

و أبلغ الدليل في هذه القضية قوله سبحانه و تعالى: إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً⁷، و قد اشتهر عند العام و الخاص ما كان يأخذه صلى الله عليه و سلم من الثقل عند تلقي الوحي، ثم مع هذا كله يصحح العلماء أنه التبس عليه أمر الشيطان، و التبس عليه أمر كذبه، و هو عالم بما كان يأخذه عند نزول الوحي من الثقل من هيبه جلال الربوبية، ثم يكلمه الشيطان مع حقارته و ذله حتى يظن أنه كلام الربوبية و يحمل الفرق بينه و بين كلام الله تعالى، فلا يقول بصحة هذه القضية إلا جاهل غبي، و أما الدليل الرابع قال سبحانه و تعالى: من يطع الرسول فقد أطاع الله فهذا دليل صريح في أن الله عز و جل طهره صلى الله عليه و سلم ظاهراً و باطناً و خلقاً و تحقفاً، كما قال فيه: و إنك لعلی خلق عظیم⁸، فلا يقع منه صلى الله عليه و سلم ما يخالف الحق، أو يلبس الحق بالباطل من كل وجه و من كل اعتبار، فكل هذه الأدلة قطعية في تكذيب هذه القضية، و فيما ذكر منها كفاية، و الجواب عن الآية قال رضي الله عنه قوله تعالى: و ما أرسلنا قبلك من رسول و لا نبيء إلا إذا تمنى الآية فمن زعم أنها دليل في تصحيح قضية الغرائيق فليس بمصيب، فإن الآية ليست بدليل، لأن القضية حينئذ بتبليغ الوحي لا في القراءة التعبدية...

1- سورة الزخرف، الآية 43

2- سورة البقرة، الآية 2

3- سورة الأنعام، الآية 153

4- سورة الفتح، الآية 1-2

5- سورة المائدة، الآية 15

6- سورة الإسراء، الآية 9

7- سورة المزمل، الآية 5

8- سورة القلم، الآية 4